تأمرت :

التقليـــــد والتمثيل

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

عندنا عامل فقير مرح ، فجأته ثروة ضخمة ، فانكب على إنفاقها ، فأصابته أمراض وعلل ، فانقلب صاحب هم وغم ولم يجد خلاصاً من همه وغمه إلا أن يفر من ثروته

هذا الرجل تريد أن تمثله فكيف تمثله ؟

الممثلون ينقسمون حيال هذا الرجل — كما ينقسمون حيال غيره — إلى قسمين : قسم يقول لك : أنا إذا أردت أن أمثل دوراً كهذا فإنى أبحث بين الناس أو فى ذاكرتى عن رجل يشبهه أكون قد رأيته أو أكون قادراً على رؤيته ، ثم أدرس هـذا الشبيه فى فقره ومرحه فأرى أثر الفقر فيه ، وتأثيره فى صوته ، وفى مشيته ، وفى حديثه ، وفى إصغائه ، وفى إشاراته ، وفى إقباله على الناس ، وفى تركه للناس ... وما يفعله الفقر بعد ذلك كله فى نفسه ، ثم أدرسه بعد ذلك فى مرحه ، ثم أدرسه بعد ذلك إذا اغتنى ، فإذا رأيته يبذر الفرش فى طعام ، فهو سيبذر الجنيه فى طعام أيضاً إذا أتاه جنيه ، وإذا رأيته يبذر الفرش فى زينة ، فهو سيبذر الجنيه أيضاً فى زينة ، وإن اختلفت زينة الفرش عن زينة الجنيه ؛ ثم أدرسه بعد ذلك وهو مريض ممتل ، فأراه إذا كان يصبر ويحتمل أو يتبرم ويتململ ؛ ثم أدرسه بعد ذلك فى همه وغمه ، فأراه كيف يشكو أو كيف يكتم الشكوى ، وأراه لمن يشكو إذا شكا ، ألكل من هب ودب أمامه ، أم لعاقل ترجى عنده النصيحة ، وأراه بعد ذلك كيف يقطع الرأى فيما يهمه ويغمه ، أيتردد طويلاً أم قصيراً ، أم يبت فى الأمر بالفكرة الأولى ، أم يستقصى ما يتوارد إلى ذهنه من الأفكار ، أم يستسلم فلا يفكر ؛ ثم أدرسه فى آخر الأمر وهو فار هارب من همه وغمه ، وأراه كيف يكون حين يشعر بالنجاة ، أراضياً مرتاحاً ، أم ساخطاً ، أم مشتاقاً إلى الرجوع إلى النكد عندما يذكر أن هذا النكد كان فيه مال ، وكانت فيه ثروة فإذا درست هذا كله وإذا رأيته استطعت بعد ذلك أن أمثله وأنا أضمن أن أخرجه صورة طبيعية صادقة رائعة ...

هذا كلام يقوله ممثل من القسم الأول ، أما الممثل من القسم الثانى فيقول : « ومالى أنا أجرى وراء الناس ، أو أجرى وراء الأشباح فى ذكراى ؟ أنا سأفرض أنى هذا العامل الفقير وسأرى أى أثر يؤثر هـذا العمل فى النفس وفى الجسم : أهو يعطى صحة أو يعطى سقماً ، أهو يورث الهدوء أم يبعث فى الأعصاب الفزع ، أهو ينشط العقل أم يعلمه النوم والكسل ... فإذا علمت أى شىء يصنعه هذا العمل بالعامل استطعت أن أعود إلى نفسى أنا فأراها كيف تكون عندما تنطبق عليها الأوصاف المترتبة عن هذا العمل ، وليس على بعد ذلك إلا أن ألزم نفسى اتخاذ هذه الأوصاف وأنا أمثل هذا الدور ، فإذا فرغت من هذا الأساس رجعت إلى نفسى مرة أخرى فرأيتها فى الفقر ورأيتها فى المرح ، ورأيتها حين تبذر وتسرف كيف تلقى المال وكيف تنسفه إذا كانت بهذه الأوصاف الجيدة ، ثم أرى نفسى بعد ذلك كيف أهتم وكيف أغتم ، وكيف أفر من الهم ومن الغم ...

فإذا رأيت هذا كله وإذا درسته استطعت بعد ذلك أن أمثله وأنا أضمن أن أخرج للدور لك صورة طبيعية صادقة رائعة

وتسمع أنت كلام الممثل الأول ، وكلام هذا الممثل الثانى ، وتريد أن ترى أيهما الأضمن طريقاً ، وأيهما الأمكن فناً ، أهذا الذى يتلقط مادة فنه من صورها الطبيعية ، أم هذا الذى ينفخ نفسه فى الطبيعة فيخرجها مخلوقاً جديداً ؟

فإذا طلبت من هذين الممثلين أن يمثلا هذا الدور ، رأيت الممثل الأول يسرع إلى الإجادة ، فلا يحتاج إلى تدريب ، وإن احتاج فإلى تدريب قصير يتمكن بعده من الدور تمكناً ملحوظاً

أما الممثل الثانى فإنك تراه يتسكع نحو الإجادة تسكعاً ، ولكنه كلما أصاب تصوير حالة ما استمسك بها ، وراح يبحث عن غيرها ، فكلما طال تدربه على الدور وانشغاله به زاد إتقانه له

واندماجه فيه ، على العكس من الممثل الأول الذى يقف فى الإجادة والإتقان عند حد خاص ، هو الذى رآه فى الطبيعة ونقل عنه .

وليس هذا وحده هو الفرق بين هذين الممثلين ، فثمة فرق آخر كبير ، ذلك أنك تجد فى الممثل الأول الذى يأخذ عن الصور الطبيعية ملامح هذه الصور الطبيعية ولا ترى ملامحه هو، كما أنك ترى نفوس هذه الصور الطبيعية ولا ترى نفسه هو؛ أما الممثل الثانى فإنك ترى ملامحه ونفسه فى هذا الدور ، فكأنه هو قد انصرف عن التمثيل فعلاً واشتغل عاملاً وافتقر ، وحدث له وحدث ...

فأى واحد من هذين الممثلين أمكن فناً من صاحبه ؟

أغلب الممثلين المجيدين فى الغرب من النوع الأول ، وقليلون جداً فيهم الذين من النوع الثانى وأذكر منهم شارلى شابلن

وأغلب الممثلين المجيدين عندنا هنا من النوع الأول أيضاً ، وقليلون جداً فيهم الذين من النوع الثانى وأذكر منهم نجيب الريحانى

ولعل القارئ يلحظ أن شارلى شابلن منذ استتب أخذ يتباطأ فى إخراج الروايات ولم يعد يلاحق بعضها ببعض ، كما أن نجيب الريحانى قد أخذ هو أيضاً يتباطأ ولم يعد يخرج فى العام الواحد أكثر من روايتين

ولعل القارئ يعرف أن شارلى ونجيب يقضيان ما بين الرواية السابقة والرواية المقبلة تهيؤاً وتربصاً ، وإن كان شارلى يستمتع بحرية أوسع بكثير جداً من الحرية التى يستمتع بها الريحانى

وشارلى ونجيب لا يتشابهان فى هذا فقط ، وإنما هما يتشابهان أيضاً فى أن كلا منهما يؤلف رواياته لنفسه ، ويعلم ممثليها بنفسه ، ثم إن كلا منهما يضم حوله مجموعة من الممثلين لا يكاد الجمهور يعرفها إلا حوله هو ، فإذا بعدت عنه ثقل التمثيل عليها وثقلت عليه ، زد على ذلك أن شارلى شابلن بدأ أخيراً يضع الموسيقى التى تصاحب التمثيل فى رواياته ، وقد سبقه الريحانى إلى هذا وإن لم يكن قد سبقه بنفسه ، فزكريا أحمد الملحن الكبير الذى اختصه الريحانى برواياته يقول إنه تعلم من الريحانى ألواناً من الموسيقى شرحها له معانى فنفذها هو بالنغم

فهل هنالك علاقة بين أوجه الشبه هذه ، وبين الطريقة التى يسلكها هذان الممثلان فى فنهما ؟ وهل نستطيع أن نقول إن هذه الطريقة هى التى ارتقت بهذين الممثلين حتى ميزتهما هذا التميز على الممثلين المجيدين ؟

الواقع أن هناك علاقة وصلة بين هذه الطريقة وبين هذا التمكن الفنى الذى وصل إليه كل من الأستاذين شارلى شابلن ونجيب الريحانى

فنحن إذا رجعنا إلى طريقة التمثيل الأولى رأيناها أقرب إلى ما تمارسه القردة من التقليد ، فالقرد كلما رأى حركة قلدها ، وكلما رأى حالة نفسية تنضح على صاحبها أثراً جسمانياً بادياً تصنع هذا الأثر الجسمانى البادى وإن لم يقدر على أن يقنع الناظر إليه بأن نفسه من الداخل قد تحولت إلى هذه الحال التى من عادتها أن تنضح بهذا الأثر ، ولكن الممثل الذى من نوع شارلى ونجيب أصدق تصويراً للنفس الإنسانية فى حالاتها المختلفة ، وإن كان يتقيد فى هذا التصوير بطبيعة نفسه هو تاركا ما عداها من النفوس ، ونفسه مهما كانت غنية ومهما كانت سهلة طيعة فهى نفس مفردة واحدة بينا الحياة فيها ملايين الملايين من النفوس والصور ...

وهذا عيب قد يؤخذ على هذا النوع من الممثلين ، ولكنه فى الحقيقة غير عيب ، وإنما هو فضيلة . فكل نفس إنسانية فى حقيقتها المجردة لا تفترق فى شىء عن غيرها من النفوس ، وإنما تختلف النفوس بعضها عن بعض تبعاً لمؤثرات عارضة بعضها موروث وبعضها مكتسب ، وبعضها تمكن ، وبعضها لا يزال مزعزعاً ، وهكذا ، والفنان الذى يتخذ الحق طريقة إلى الفن يبدأ أول ما يبدأ بمراقبة نفسه ومتابعة فضائلها ورذائلها ، ثم يعكف على توطيد الفضائل ، ومكافحة الرذائل ، فإذا لم ينجح حيال شر من شرور نفسه لم يخفه عن الناس ، وإنما أعلنه مع ما يعلن من نفسه فيعرف عن الناس أسراره ودخائله وشروره وآثامه وعيوبه وأخطاءه ومساويه ورذائله ، وهو أول من يعرفها من الناس ، وهو أول من يكرهها وإن استسلم لها وعجز حيناً منها ، ولكنه لا يزال يتربص بها الفرص ويرجو النجاة منها ويطلب من الحق أن يعينه على هذه النجاة ...

وهذه نزعة من نزعات التصوف ، وهى انطلاقة جريئة نحو الحق ، وهى وحدها التى تمكن صاحبها من الإلمام بنفسه